

# «أبناء الرجال» في عالم عقرت فيه النساء

## رؤية ديستوبية لمستقبل توفّر فيه إنجاب الأطفال

عن رواية فيليب دوروثي جيمس (1920-2014) التي صدرت عام 1993، أخرج المخرج المكسيكي ألفونسو كوارون (صاحب هاري بوتر، سجين أركبان، جاذبية الأرض، روما)، فيلم «أبناء الرجال» الذي يدور في المستقبل القريب، في عام 2027، ويتخيل انتشار العقم بين نساء العالم، نتيجة العبث بكوكبنا الأرضي وما ينتج من تغيرات مناخية تنعكس سلباً على البشر.

الاشتبكات والدمار وانفجارات القنابل في قلب لندن، واشتعال الحرائق، مع شعور الجميع بالخوف والتوتر والقلق. وأما السلطات، فبدلاً من محاولة ضبط الأمور وجعلها تحت السيطرة، أصبحت تطارد أفواج اللاجئين، وتمنح المواطنين عقاقير مجانية للاندثار.

### صورة قاتمة

يبدأ الفيلم بإعلان خبر وفاة أصغر شخص في البلاد عن عمر 18 عاماً. وهو خبر يحدث صدمة كبرى لدى الجميع. أما مدخلنا إلى الفيلم فهو «ثيو» (يقوم بالدور كلايف أوين) الذي كان في الماضي ثورياً وكان يرتبط بعلاقة حب حميمية مع «جوليان»، وقد أنجب منها ولداً. لكنه توفي، بعد ذلك غير ثيو نهجه، وقبل منذ سنوات، العمل لحساب الحكومة في إحدى الوزارات.

والآن نراه ينجو بمعجزة من تفجير في قلب لندن، فيستقل قطارا مزدحماً بالبشر من كافة الأجناس، ويتجه لزيارة صديقه القديم رسام الكاريكاتير «غاسبار» الذي يقوم بدوره في أداء مُمتع مايكل كين. وغاسبار يعيش في منزل ريفي وسط الغابات بالقرب من كانتربري، مع زوجته الصامتة. ونحن لا نعرف هل كان صمتها اختيارياً أم عجزاً؟

في طريق العودة يتعرض ثيو للاختطاف على أيدي مجموعة من منظمة «سك» الفوضوية المُعادية للدولة التي تتزعمها جوليان. لكن الجيش يطارد المختطفين، وتفقد جوليان حياتها خلال المطاردة، ويقتادون ثيو إلى مكان في الريف الإنجليزي حيث يكتشف هناك وجود فتاة سوداء حاملاً اسمها «كي» يحتجزونها ويريدون من ثيو أن يستخدم نفوذه وعلاقاته بالسلطة لتحريرها خارج البلاد.

يقوم ثيو باصطحاب كي والفرار بها من الأسر من جماعة «سك» التي يشك في أن لديها ماريها الخاصة وأنها ترغب في استخدام الفتاة لأغراض سياسية في سياق صراعها مع الدولة، بعد أن اتضح أنها المرأة الوحيدة على سطح الأرض التي يوركت بمعجزة الحمل منذ 18 عاماً.. ربما من أحد رجال منظمة «سك».

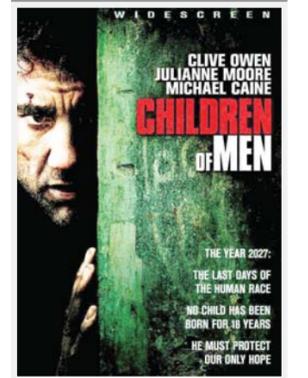
ويخوض الاثنان مغامرة محفوفة بالكثير من المخاطر، يُطاردهما رجال المنظمة في مشاهد طويلة، تشهد خلالها صورة انوكاليسية مُرعبة. وعلى الرغم من قنامة الموضوع والصور الكثيرة الكثيرة التي تتعاقب، إلا أن الفيلم ينتهي نهاية متفائلة وكانه يجسد بصورة مباشرة فكرة وجود الضوء في نهاية النفق المظلم، ويجعل من الفتاة السوداء كي رمزا لاستعادة جيل جديد من البشر من جنس مُختلف هو الذي سيحل الحياة قابلة للاستمرار فوق كوكبنا الأرضي. وهي



أمير العمري  
كاتب وناقذ سينمائي مصري

تدور أحداث فيلم «أبناء الرجال» CHILDREN OF MEN للمخرج المكسيكي ألفونسو كوارون في بريطانيا، ضمن رؤية «ديستوبية»، أقرب إلى عالم جورج أورويل. لقد تحولت بريطانيا المعاصرة إلى ما يشبه ساحة حرب، وفاضت بطوفان من اللاجئين الذين هرعوا إليها من جميع أنحاء العالم يريدون الاحتماء في تلك الجزيرة الهادئة المنكفئة على نفسها.

لكنها لم تعد هادئة، فقد أصبحت ساحة للصراع المسلح الشرس بين أطراف ثلاثة: جماعة يسارية متطرفة تُريد تحطيم الدولة الشمولية بالوسائل الإرهابية وتحاصر للدفاع عن حقوق اللاجئين هي منظمة «سك»، تقودها امرأة شديدة البأس هي «جوليان» (جوليان مور). وسلطة الدولة القمعية الفاشية متمثلة في الجيش الذي يطارد اللاجئين ويقتلهم أو يأسرهم ويضعهم في معسكرات اعتقال كبيرة داخل أقاليم. وجماعات الإرهاب الإسلامية التي كونت ميليشيا مسلحة تُريد الاستيلاء على السلطة مستغلة الفوضى القائمة في البلاد.



### صورة شديدة القاتمة

لمستقبل أصبح فيه الإنسان يسير دون هدف واضح، لا يكاد يجد ما يأكله

خارج هذه الأطراف الثلاثة المتصارعة هناك جماعة «مشروع الإنسانية» التي يبحث علماءها سبل استعادة خصوبة النساء مُجدداً، وهي جماعة موجودة أساساً خارج البلاد ولها أزرع في الداخل، تريد توفير سبل النجاة لكل من يؤمنون بضرورة إعادة خلق العالم من جديد.

إننا أمام صورة شديدة القاتمة لمستقبل أصبح فيه الإنسان يسير دون هدف واضح، لا يكاد يجد ما يأكله مع تضاؤل ضرورات الحياة، وتنامي



جوليان وثيو: المناضل السابق والزعيمة الجديدة



### جدار الأمل في استمرار الإنسانية

ومن المشاهد الطويلة التفصيلية التي تبدو أيضاً شديدة الإقناع والتي استخدمت فيها خدع المؤثرات الخاصة، مشهد ولادة كي لطفلتها، حيث يقوم ثيو نفسه بتوليدها، في لحظة تبدو متصلة وتبدو الولادة طبيعية تماماً تحدث أمام الكاميرا في الزمن الطبيعي.

### عن الأداء

من ناحية الأداء، يمكن القول إن جوليان مور لم تُختبر بشكل جدي بعد أن غادرت الفيلم مبكراً، على العكس من مايكل كين الذي قدم أداء ليس من الممكن نسيانه في دور غاسبار، بنظاراته الكبيرة وشعره الأشقر الذي ينسدل فوق كتفيه وأدائه الطفولي العابت المرح الذي يتسق مع شخصيته كفضولي متمرد على الثقافة الرسمية. فقد بدا أقرب إلى «ميجي» قديم، يتعاطى الحشيش ويشجع الآخرين على تعاطيه، يستمع إلى الموسيقى التي تذكره بالماضي، ويطلع بيده زوجته الصماء. وكما عاش لاهيا عابثاً يتمتع بحكمة خاصة تمنحه الشجاعة، يلقي مصرعه على أيدي الجنود وهو يُعابثهم ويسخر منهم.

كلايف أوين في دور ثيو تماثل مع الشخصية إلى حد كبير وإن لم يرتفع في كل المشاهد إلى مستوى الموضوع نفسه الذي كان يقتضي تلوين والانفعالات. إن حيرته بين ماضيه وعلاقته السابقة بجوليان، وما أصبح عليه بعد أن التحق بخدمة الحكومة، ثم استعادته قيمه المثالية القديمة، لم تتضح تماماً وقد يكون رسم الشخصية في السيناريو هو المسؤول عن هذا. ونجحت كلير هوب أشيتي في تجسيد دور كي، بإقناع وثقة.

عن نهاية الفيلم يقول ألفونسو كوارون «لقد أردنا أن تُعطى النهاية بصيصاً من الأمل لدى الجمهور لكي يضعوا فيها مشاعرهم الخاصة، فالشخص المتفائل بطبعه يمكنه أن يرى الكثير من الأمل هنا، أما من يميل للتشاؤم، فقد يراها نهاية عديمة الأمل».

التسجيلي، وجعلها تبدو كما لو كانت قد جرى تصويرها من دون توقف. وهي «خدعة» اتقنها خبراء المؤثرات الخاصة الذين كان يتعين عليهم توصيل لقطات منفصلة معا بحيث يحافظون على الاستمرارية دون قطع.



من ناحية الأداء، يمكن القول إن جوليان مور لم تُختبر بشكل جدي بعد أن غادرت فيلم «أبناء الرجال» مبكراً



### الصدمة والدهشة أمام معجزة الإنجاب

تمنح الشعور بالاعتراب. لكنها أيضاً قريبة منا، فهو مثلاً لا يستخدم الالعب والابتكارات التكنولوجية التي توحى بالزمن المستقبلي الذي تدور فيه أحداث القصة (2027)، بل يقرب عالم المستقبل من عالمنا عن قصد، لتحقيق تأثير مباشر على المتفرج.

فصورة بريطانيا المُعاصرة في الريف والمدينة، تبدو واقعية ولكنها في الوقت نفسه، تعكس ما وقع من تدهور وانهار حيث أصبحت الساحات والشوارع والطرق الحقول، أقرب إلى أطلال مدن دارت فيها معارك عسكرية ضخمة.

تمكّن كوارون من تحريك المجاميع الكبيرة من الممثلين الثانويين، في مشاهد تتحرك فيها الكاميرا حركات تتبّع طويلة تتابع فيها الشخصيات من الخارج إلى الداخل، مع اهتزاز المنظور، بحيث تجعل المشاهد ينشعرون بالدوار.

ومن هذه اللقطات- المشاهد، التي تتصل فيها حركة الكاميرا، مشهد هروب ثيو من مختطفيه، ودخوله أحد المباني وجريه المتواصل في ممرات متعرجة وسط صعوبة صعوده وهبوطه. وكذلك المشهد الذي يدور قرب النهاية عندما تقتحم قوة من الجيش أحد المباني التي يتحصّن داخلها أفراد من جماعة «سك» الإرهابية، كما يهرب إليها ثيو وكى، وهو مشهد يتضمّن صعود سلالم ملتفة، والانتقال من طابق إلى آخر.

وكانت فكرة كوارون الذي عثر على مواقع التصوير المناسبة في شرق لندن، أن يجعل الصورة العامة لهذه المشاهد التي تصوّر الفقر والتدنّي والدمار شبيهة بما يعرفه في بلده المكسيك.

ومن شاهدوا فيلم «روما» الذي أخرجه كوارون بعد ثلاثة عشر عاماً من «أبناء الرجال»، يُمكنهم أن يدركوا أنه كان مع مدير تصويره الموهوب إيمانويل لوبيزكي، يتدربان على تلك المشاهد الملهمة الكبيرة في «روما» التي صبغها بالطابع

حرفياً تعبر مع ثيو نفقاً مظلماً غارق بمياه البحر لكي تصل إلى قارب النجاة الذي سينقلها إلى جماعة «مشروع الإنسانية».

### حس واقعي

ما يجعل هذا الفيلم أحد الأفلام التي تبقى في الذاكرة، نجاح مخرجه ألفونسو كوارون، في إدارة مثليه وسط أعداد كبيرة من الممثلين الثانويين في مشاهد كبيرة فصورة ببراعة وصق وإقناع، على نحو لم يتحقق سوى في أفلام قليلة بكل هذه القوة والتأثير. وربما لا يوجد شبيه له في براعة تصميم المشاهد، واختيار مواقع التصوير، وإعادة تسقيع المناظر بحيث يجعلها تجسد تلك الرؤية الديستوبية المرعبة، سوى فيلم ستانلي كوبريك الشهير «خزانة رصاص محشوة بالكامل» FULL METAL JACKET.

استطاع كوارون، بحسّه الواقعي الصارم، أن يحصل على ما أراد من فريق الإنتاج، أي على مواقع غريبة



القلق والتوتر في عالم ينتهي